ابن رشيق

ـ من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجكوتى ـ

﴿ أنموذج من شعره ﴾

كان صاحبنا بحيث مرّ من إبداع المعانى واختراع الأساليب وتقوب الذهن وجودة القريحة ، وليس من الحائمين حول جزالة التراكيب وفخامة المبانى وفصاحة الألفاظ فحسبُ . وسيأتى فى ذكر قُراضة الذهب له أنه يفنّد الشعراء وينعى عليهم سَرِقاتهم . فليس من الممكن ان نرى فى شعره « قعقعةً ولا طحنَ » أو معنى مسروقاً بل نجده وافر النصيب من الإبداعات والابتكارات والمعانى الدقيقة والأفكار اللطيفة والأساليب المتينة والمبانى الرصينة

زفرة العاشق

إن كنت تنكر مامنكَ ابتُليتُ به ... فإنّ بُرْءَ سقامى عزّ مطلبُه
أشِرْ بعود من الكِبريت نحو فمى ... وانظرْ إلى زفراتى كيف تُلهبه

علّة الهُزال

وقائلة ما ذا الشُحوب وذا الضنى ... فقلت لها قول المشوق المتيم
هواكِ أتانى وهو ضيف أُعزّه ... فأطعمته لحمى ، واسقيته دمى

طول الليل وصنعة التوجيه

قد طال حتى خلتُه ... من كل ناحية وسط
وتكرّرت فيه المنا ... زل منه ، لامنى الغلط

يعنى أن الليل من طوله كان كخط الدائرة ليس له بُداءةٌ ولانهاية بل حيثما أخذت منه فهو وسط . وتكررت منازله فهذا الخطأ منه ليس منى أو هذا خطأه لا بل هو منى

المديح وصنعة السلسلة بالعنعنة

أصحّ وأقوى ماسمعناه فى الندى ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديثُ يرويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كفّ الأمير تميم

وقد أثنوا عليه فى البيتين ثناء لامزيد عليه [1] . وانظر فى حسن التعليل ببتيه (طيبًا وحبيبا) وكذا قوله فى وصف النارنج وقوله فى قطوب وجهه وسيمرّ بك شيء فى الفصول الآتية . وقال فى الأمثال ، ولقد أجاد وبلغ المراد أو كاد :

فى الناس من لا يرتجى نفعُه ... إلا إذا مُسّ بإضرار
كالعود لا يُطْمع فى طيبه ... إلاّ إذا أُحرق بالنار

وأما بديهته فكم له من فيض اليد وعفو الساعة من غير تروٍّ أو تلبّث ولو فُواق بكيّةٍ . وراجع أمثلتها فى النُتف لاسيّما إجازته [2] لبيت ببيت على الدال (ولدُوا وعَدَدُ) بل جُلّ ما عثرنا عليه من شعره فهو من هذا الباب والتقطنا فوائده من كتاب بدائع البدائه . وأما طوال قصائده فلم تصلنا اللهم الأشيء نَزْر كقطرة من بحر

وأما شعره فى الرثاء فان نونيّته فى خراب القيروان لايضاهيها إلا نونيّة صالح بن شريف الرُنْدىّ المذكورة فى القلائد ونفح الطيب وهى معروفة ، وسينيّة ابن الأبّار [3] الكاتب البلنْسىّ صاحب التكملة لكتاب الصلة التى أنشدها بحضرة أبى زكريا ابن أبي حفص صاحب تُونس مستنجداً لمسلمى أندلس على نَصاراها والتى أولُها :

أدركْ بخيلك خيل الله أندلسا ... إن الطريق إلى منجاتها دَرسا

ونونيّة شمس الدين الواعظ الكوفى [4] فى زوال بغداد ودمارها على يدى الغفريت هولاكو خان ومطلعها :

(١) راجع المعاهد ١ : ٢١٩ (٢) الشريشى ٢ : ١١٦ (٣) نفح الطيب مصر ٢ : ٥٧٨
(٤) الفوات بولاق ١ : ٢٣٨

إن لم تقرّح ادمعى أجفانى من بعدِ بُعدِكم فما أجفانى !

وكأنها حُذيت على مثال نونيّة صاحبنا [1] فهو أقدمهم عصراً وأنبههم ذكراً وأطيبهم نشراً . فهل من قلب قاسٍ أو طبع جاسٍ يسمعها بسمع فؤاده ولا يرقّ لما حلّ بأهل القيروان محَط أهل الدين ومعشّش الإيمان ولا يستنزف شؤونه أولا تقطّع نفسُه حسراتٍ دونه . فنفرا اللهمّ !

﴿ صاحبنا فى أرذل العُمُر ﴾

من غريب الاتفاق أن صاحبنا والمعزّ والدولة المعزية وُهبوا فى وقت من بديع السموات والأرض الشيخوخة كما وُهبوا من قبلُ الشباب . وقد رأيناه فى الفصول السابقة يرتع فى جنان النعيم ويهدأ فى ظلال الخفْض والدعة إذ قلب له الدهر ظهر المجنّ فكابد وعثاء السفر وضيق ذات اليد وحُرْفة الأدب وأرذل العمر

فارقتُ شَنْباً وقد قوّستُ من كبر وبنْت الخلتان الحُزن والكبرُ

ونراه يئنّ تحت حمل الهرم الفادح ، والضعف الخاذل الفاضح . راجع القوافى (للشيب وبلق الغراب وعن الصواب) . وبيناه هذان كالنيّرين فى الخافقين :

إذا ما خفقتُ لعهد الصبِيّ أبت ذلك الخمسُ والأربعونا

وما ثَقُلت كِبَراً وطأتي ولكن أجرّ ورائى السنينا

والمعنى بحيث ترى كروضة أُنُف لم يوطأ قبله بخُفّ ولا حافر ، وكمنهل سائغ لم يُطْرَق بوارد ولا صادر . وقال فى حرفة الأدب :

ما أنت يادهر بالاهوال تفجعنا إلاّ كمن يَقْرَع الجُلمودَ بالخزَف

البيتين . وقال :

أشقى لعقلك أن تكون أديبا أو أن يرى فيك الورى تهذيبا

(١) الدالم ١ : ١٠ — ١٨

ما دُمتَ مستوياً ففعلك كله ... سَوَجٌ وإن أخطأتَ كنتَ مصيبا
كالنقش ليس يَصحّ معنى خَتْمه ... حتى يكون بناؤه مقلوبا

﴿ عزيمة السفر ﴾

صاحبنا كان حِلْسَ البيت والوطن ، ومُرِباً بالأهل والسَّكَن ، لم يفارق العَطَن . وهذا أبو الفضل الدارمىّ كان استوطن القيروان ولكن لم يلبث والحالة هذه مع حاجته وقال :

ومعتَفٍ لى في المقام ضرورةً ... بالقيروان وما بها سلطان

الأبيات (١) . وأمّا قِرْنه ابن شرف فإنه قد أفرط في العجلة كراكب عجلان ـ وكأنه لم يكن يؤمن بقولهم : حسن العهد من الإيمان . فإنه هاجر الى صقلية بادىء بدء (٢) ولم يغادر المعز القيروان . وبالجملة فان المعزّ لما فارقها بحكم الضرورة وفارقه الجد والزّ اللذان كانا رفيقيه طول حياته استقام صاحبنا على منهج الوفاء وحفظ الذمام فتبعه إلى المهدية . إلا أن هموم المعز كما سبق لنا ذكرها مراراً أنسته استمالة صاحبنا واستعطافه كما قال ابن بسام (٣) بعد أن ذكر انجلاء المعزّ عن القيروان :

« وكان أبو علي ممن انحشر في زمرته المحروبة ، وتحيّز إلى فئته المنكوبة ـ أقام معه وعشى المهدية فما بَعُد (كذا) أسطول الروم . فأصبح البحر ثنايا ، تطلع المنايا . وإكاما ، تحمل موتاً زُؤاما . فدخل على المعز حين وضح الفجر فوجده فى مصلاه والرِقاع عليه تَرِد ، والشمع بين يديه تتقد . فقام ينشده قصيدته التى أوّلها :

تثبّتْ لا يُخامِرْك اضطراب ... فقد خضعت لعزتك الرقاب

(١) المعالم ٣ : ٢٤٢ (٢) أمنى سنة ٤٤٧ كما فى الصلة العدد ١٢٠٨ والمعالم ٣ : ٢٣٩ (٣) مسالك الابصار : أماري ص ٦٥١

فقال مَهْ ! متى (١) عهدتني لا أنثبت ؟ اذا لم تجئنا إلا بمثل هذا فما لك لا تسكت عنا . ثم أمر بالرُقعة التي كانت فيها القصيدة فمزقت ولم يقنعه حتى أدناها الى الشمع فأحرقت (كذا)

وأما تعيين عام رحلته إلى صقلية فلم أر من نبه عليه غير ان في قول ابن بسام المذكور آنفا هذه الجملة « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق وكان وجهته الى صقلية » والأنفة والحمية أيضا كانتا تقضيان بذلك على ما قيل :

ولا يقوم على ضَيْم يراد به إلا الأذلان عَيْر الحيّ والوَتِد

وكان المتنبيء فارق سيف الدولة على أن ابن خالويه أمَرَّ مفتاحا في المنديل ورماه بحضرة سيف الدولة ولم ينضب له ولا احتمى . وإن كانت صقلية لم تكن تصلح للاستيطان بما دَهمها من فتنة طاغية مالطة رَجّار الإفرنجيّ إلا أنها كانت أقرب ميناء الى المهدية . وقال صاحب البساط انه هاجر اليها بعد وفاة المعز في السنة ٤٥٣ هـ

﴿ من المستحيل وجود الخليل ﴾

وقالوا ثلاث يستحيل وجودها على المرء منها صاحب وخليل
نعم صدقوا ان الاخلاء جمة « ولكنهم في النائبات قليل »
فكم صاحب يبدي لك الود خالصا اذ العيش رغد والعطاء جزيل
فان غيرتك النائبات تغيرت به عنك أخلاق وجدّ رحيل
كأن لم يطوق جيده منك بالندى وفاءٌ ولم يغمره منك جميل

جبل عامل الحوماني

(١) وأما صاحب البساط ص ٩ ه فقال ان ابن رشيق كان يسايه أحياناً عند التكدر بانشاد قصائده المطربة ثم نقل حكاية الذخيرة هذه محرفة حيث حكى « متى عهدتني ياتديمي لا أنثبت ؟ »